فلسفة الحياة عند جبران خليل جبران
قراءة في قصيدة "المواكب"

أ.كريم الطيبي[1]/ المغرب

ملخص البحث:

يحاول هذا المقال رصد فلسفة الحياة عند جبران خليل جبران، من خلال قصيدته المشهورة "المواكب"، لقد حاولنا الإجابة عن سؤال: كيف ينظر جبران للحياة؟

قمنا، بداية، بتعريف هذه القصيدة المهمة وناقشنا بعض الآراء التي قيلت فيها، ثم انتقلنا لمحاورة مقاطع القصيدة لنستشف منها التصور الذي يتبناه جبران تجاه الحياة، فوصلنا إلى أن تصوره فلسفي عميق ينبني على فكرة مؤداه أن هناك عالمين: عالم الناس وعالم الغاب، والأول عالم بئيس تتعايش فيه التناقضات والاختلالات، بينما الثاني هو الأصل عالم الغاب، حيث الهدوء والحب والحياة.

مقدمة:

نروم في هذا المقال الكشف عن تصور وفلسفة جبران خليل جبران للحياة، وجبران معلوم أنه من عمالقة التيار الرومانسي الذين تميزوا عن غيرهم وأسسوا تصورا منفردا خاصا بهم. ومن أجل بلوغ هذا المرام، ارتأينا دراسة قصيدته المشهورة "المواكب". فما هي، إذا، فلسفة الحياة عند جبران خليل جبران؟ وما مميزات النظرة الجبرانية لهذه الحياة؟

أولا: بين يدي القصيدة:

تعتبر قصيدة المواكب، أول مطوَّلة نظمها جبران، إذ قلَّ ما كان جبران ينظم شعرًا، وله في الشعر قصائد معدودات،لأن جبران كان لا يعبأ للشعر كثيرًا، باستثناء ما كان ينظم بِعُجَالَة، كما أنه شاعر بنثره لا بشعره كما قال أحد الدارسين. وقصيدة المواكب تعتبر باكورة جبران الإبداعية في مجال الشعر، وقد عَمَدَ فيها إلى إبراز أهم أفكاره وتصوراته إزاء مواضيع عدَّة تتواشج مع فلسفته في الحياة ورؤيته إزاءها.

وتجدر الإشارة أن جبران خليل جبران أصدر قصيدة المواكب عام 1919م؛ ونشرها في كتاب مستقل، على نفقته الخاصة، مرافقًا إيَّاها بجملة من الرسوم المعبّرة والبديعة التي كان يرسمها. وتتألف هذه القصيدة من 105 بيتًا، تأسى فيها الشاعر بنواميس القصيدة الكلاسيكية، بناءً ووزنًا

---

[1] **السيرة الذاتية:** كريم الطيبي، باحث من المغرب، وأستاذ اللغة العربية بسلك الثانوي الإعدادي، حاصل على شهادة الماستر من جامعة عبد المالك السعدي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان.أشتغل، حاليا، على إعداد أطروحة الدكتورا في موضوع بلاغة الرحلة.
العنوان: شارع مولاي المهدي، رقم: 64، مدينة العروي – الناظور/ المغرب. الهاتف: 06.61.74.29.70، البريد الإلكتروني: **karimtaibi1988@gmail.com**

وقافيةً. يقول الدكتور جميل جبر مُعَرِّفًا قصيدة المواكب:" قصيدة طويلة موزونة ومقفّاة؛ هي حوارية يتبارى فيها صوتان يتكاملان، أحدهما يعبّر عن مساوئ المجتمع والآخر عن حلاوة الطبيعة."[1]

ومن جهة أخرى، تضاربت آراء من حاولوا سبر أغوار نص "المواكب"، فاستفاضت دراساتهم بتأويلات لا تُحصى، إذ إن "النص يقدح زناد التأويل وحينما يبدأ التأويل يكوِّن ديناميته الخاصة به تبعًا لعواطف المتلقي ومعرفته ومشاغله وأهدافه وكفاياته، وللتمثيل الذاتي ولمراعاة المتلقين ولقيود ظروف التلقي."[2]. لذلك يقف الباحث حيران إزاء التفسيرات والتأويلات الغزيرة التي قُدمت لمواكب جبران؛ والتي كان أساس الاختلاف فيها، هو الحوار الذي دَبَّجَهُ جبران في قصيدته، المبني على الصوتين المتعارضين، حيث نظم الأول على وزن بحر البسيط، والثاني على مجزوء الرمل، ونحن ارتأينا أن نعرض أهم تلك التفسيرات، التي قدِّمت للمواكب.

أما القول الأول – وهو الشائع – فيدعي أن:"في الديوان صوتين: صوت شيخ خبر الدهر، عرف حقائق الأيام، فنضج فكره، وتكلم بلغة شعرية منظومة على البحر البسيط، وصوت فتى يرمز إلى بساطة الطبيعة وطهرها، بعيدًا عن التفلسف والإدلاء بالمواعظ والحكم، ويتكلم بلغة شعرية منظومة على بحر الرمل المجزوء."[3]؛ وفي هذا المضمار ذاته،"حَسِبَ نسبة عريضة أن الصوتين هما صوت شيخ وصوت شاب يتعارضان. واحد يعبر عما ترى عيناه من ألم وقبح وتشويش وقلق وشر. والآخر يستوحي خياله فيصدر عن عالم الهدوء والأمن والموسيقى والصفاء."[4]

كذلك تميل الدكتورة نادرة جميل إلى هذا الرأي، حيث تقول:"وقد جاءت مواكب جبران طريفة في أسلوبها كما هي طريفة في موضوعها، فهو قد اصطنع الطريقة الحوارية في الشعر لعرض أفكاره وآرائه: هناك في وسط الغاب يتقابل شيخ قد كلل الشيب رأسه وكساه تاجًا من الوقار، مع صبي في عنفوان الشباب خرج يحمل نايه يدعو الناس على ألحانه إلى ولوج الغاب معه حيث البساطة المجردة عن التعقيد. وخرج الشيخ من المدينة المثقلة بأعباء المدينة، وهو قد خبر صروفها وجرّب أحوالها، فاكتسب منها نظرة متشائمة إلى الناس والحياة، فيأخذ في تعداد مساوئ العالم الذي جاء منهُ والشرور التي جبل عليها أهلها، ويستمر في سرد خلاصة تجاربه من هذه الحياة التي عاشها."[5] وقد طغت هذه النظرة التأويلية على العديد من الدراسات التي تصدّت للقصيدة. أما ميخائيل نعيمة فيذهب إلى اعتبار:"الصوتين تيارين يجريان في اتجاهين متعاكسين، وهما ليسا سوى صدى النزاع الداخلي في نفس

---

[1] المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، جميل جبر. ص/43.

[2] نقلًا من كتاب: النص الشعري القديم وقضايا التلقي، عبد العزيز الحلوي. ص/116.

[3] عبقري من لبنان، ص/62.

[4] المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، جميل جبر،ص/44.

[5] شعراء الرابطة القلمية، دراسة في شعر المهجر، دار المعارف، سنة 1964ص/159.

جبران ما بين إيمانه بفطرة الإنسان الإلهية وبين ما كان يبصره في حياة الناس من بشاعة ووجع وتشويش."[1] في حين يرى عيسى الناعوري أن قصيدة المواكب بناها جبران "على صوتين، أو تيّارين متناقضين، يمثل أوّلهما ظاهر الحياة البشع وحقائقها البغيضة، ويمثل الثاني جوهر الحياة المنسجم، أو الوحدة الروحية البسيطة الحرة كحياة الغاب."[2]

لكن الفكرة التي نعتقدها في هذا المقال، تقوم على تبني الرأي القائل بوحدانية الصوت وترفض التفسير القائل بوجود صوتين متعارضين، الأول لشيخ كهل، والثاني لشاب في عنفوانه؛ لكونها نظرة سطحية تبعد عن البعد الرمزي الذي رمز إليه جبران، فالقراءة المتأنية للقصيدة تؤكد أن في القصيدة صوتا واحدا، هو صوت جبران، وإن كانت القصيدة تظهر للقارئ أنها مكوَّنة من صوتين متعارضين، فهما صوتان متكاملان ومتشابكان تشابكًا عضويًا.

إن الحوار الذي يسترعي انتباه القارئ وهو يقرأ قصيدة المواكب، هو في الحقيقة حوار نابع من منبع واحد هو جبران، ليكوّن هذا المنبع صوتين داخليين، فينبجس في القصيدة صوتان، أما الأول فيذهب إلى تعداد مساوئ الحياة المدنية المتحضرة، التي تتوفر فيها كل أسباب العيش الحضاري المتمدن معتمدًا في سياقه على أسلوب غزير من الحكمة والمعرفة . بينما الصوت الثاني يرمي إلى تمجيد عالم الغاب، وتفضيل الحياة البسيطة بين أحضان الطبيعة، متوسلًا بأدلة قاطعة حينًا، ومبينًا محاسن ومفاضل عالم الغاب على عالم الناس حينًا آخر، وهذا ما

يتضح في هذا المقطع، يقول جبران:

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا * والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا
وأكثر الناس آلات تحركـــــــها * أصابـــــع الدهـــر يومًا ثم تنكسرُ
فلا تقولن هذا عالـــــــم علـــم * ولا تقولـــــــــن ذاك السيد الوقرُ
فأفضل الناس قطعـــان يسير بها * صوت الرعـــــاة ومن لم يمشِ يندثرُ
ليس في الغابات راعٍ * لا ولا فيها القطيع
فالشتا يمشي ولكـن * لايجاريـــــه ربيع
خلق الناس عبيـــدا * للذي يأبى الخضوع
فاذا ما هـــــب يومًا * سائرا سار الجميع
أعطني الناي وغـــنّ * فالغنا يرعى العقول
وأنين الناي أبـــــقى * مـــن مجيدٍ وذليل [3]

---

[1] ميخائيل نعيمة، مقدمة المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران باللغة العربية، دار صادر، بيروت، ص/28.

[2] مهجريات، عيسى الناعوري، الدار العربية للكتاب، 1990، ص/31.

[3] المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، جميل جبر. ص/ 417.

في هذا المقطع، يتبدّى لنا المقابلة بين الصوتين بشكل جليّ، والناظر له بِعَيْنٍ فاحصة ومدققة، سيستخلص خلاصة مفادها، أن الصوت الأول – والذي نعني به الأبيات الطويلة المنظومة على بحر البسيط – يمثل العالم المتمدن، أو واقع المدنية، في حين، نجد أن الصوت الثاني – المنظوم على مجزوء الرمل – على العكس من الأول، فهو يمثل عالم الغاب. ويشكل هذان الصوتان نوعًا مما يمكن لنا أن نسميه " مناظرة "؛ والمناظرة تقوم على إظهار المتحاوران للصَّواب والحق، بغض النظر عن كونه ظهر على يد أي منهما، وقد عرفها أبو البقاء الكفوي بأنها:" النظر بالبصيرة من الجانبين – أي طرفي الحوار– في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب."[1] بمعنى أن الصوتين متآلفين ومتكاملين فيما بينهما، أما مكمن التناقض والتعارض إنما هو في الحقيقة، في العالمَيْنِ اللذين يصفانه، إنهما عالما الناس والغاب، ههنا هو موضع التناقض والمقابلة والصراع،" إنه الصراع بين الواقع المرتجى وواقع المدينة، رمز الفساد، ومرتجى الغاب، مرتع الأحلام ونعيم الأرض."[2] وحتى لا يخامرنا شك، فجبران أَعْرَبَ عن مقصديته التي كان يَرُومُ إليها في قصيدته، وهذا ما وضحه في إحدى رسائله إلى صديقته المقربة "ماري هاسكل" يَشْرَحُ فيها قصيدته المواكب، حيث يقول:" إنها تمثل نواحي الحياة كما يراها الإنسان في ذات مزدوجة: ذات التمدن وذات الفطرة المتمثلة بالرعاة الفتيان الذين يغنون للحياة بانسجام معها بدون تحليل ولاشك ولا جدال. ويلتقي الاثنان حيث يلتقي عالمهما في أطراف أرض الغابة والمدينة فيتحاوران بأمور شتى."[3]

وَصَفْوَةُ القول، أن قصيدة المواكب لجبران "بُنيت كلها على ما يوجد من تناقض جوهري بين الحياة الاجتماعية بنقصها ومفاسدها وزيفها، وحياة الغاب حيث القيم الأصيلة لم تُدنس وحيث الممارسة الوجودية تعانق الصفاء وتقارب المطلق في كنف موسيقي الناي."[4]

كانت هذه نبذة عجلى عن قصيدة المواكب، ولعل القيمة الفلسفية التي تحويها، والمضامين الشائقة التي تتضمنها، والأفكار المشرقة التي بُنِيَت عليها، والتي تجسد موقفا واضحا لفلسفة الحياة من منظور رومانسي يمجّد القيم الإنسانية، والأخلاق الفاضلة، ويصالح الطبيعة وما تحتويها من صفاء وبهاء وجمال وحسن جديرة بأن تجعل جميل جبر يصفها بأنها:" أول بناء شعري متكامل في الأدب العربي المعاصر."[5]

---

[1] عالم الفكر، العدد 1، المجلد 37، 1 يوليو– سبتمبر 2008. ص/95.

[2] المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، د.جميل جبر، ص/44.

[3] المجموعة الكاملة، د. جميل حبر. ص/ 43.

[4] أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي، فؤاد الفرفوري، ص/ 144-145.

[5] المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، جميل جبر، ص/ 44.

ثانيا: فلسفة الحياة عند جبران خليل جبران من خلال قصيدة المواكب.

تقوم قصيدة المواكب، على تصور رومانسي للحياة، هذا التصور ينبني على مقارنة بين عالم الناس وعالم الطبيعة، ونتجت عن المقارنة جملة من الثنائيات الضدية التي تجلي حجم التناقضات والاختلالات التي تطبع الواقع المعيش والمجتمع الإنساني بشكل عام. ولرصد فلسفة الحياة الجبرانية تجاه الحياة، ارتأينا أن نقف عند الثنائيات التي تصدى لها الشاعر في قصيدته[1].

المقطع الأول: ثنائية الخير والشر.

يبتدئ جبران خليل جبران، في قصيدته المواكب، بكشف رؤيته لعالم الناس، ويُعْرِبُ عن نظرته للواقع، فيقول:

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا * والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا

فالخير في العالم الواقعي، حسب الرؤية الجبرانية، مصطنع ومبتذل، غير نابع من حب الإنسان لعمل الخير، والسعي وراء نشر الفضيلة والمحبة بين بني البشر، بل هو نابع من الجبر والقسر؛ وفي المقابل، يرى جبران، في البيت ذاته، أن الإنسان وإن فارق الحياة، وتُقِلَ رُفاتُهُ، فإن شرّهُ يبقى في الوجود. هذه النظرة التي كشفها جبران، في البيت الأول من مطولته، إزاء عالم الناس، هي في الحقيقة نظرة مقبوسة من الواقع، فالإنسان الآن أصبح "ذئبًا لأخيه الإنسان" بتعبير توماس هوبس، يسعى دوما إلى الشر والدمار والتخريب ولعل واقعنا المعاصر خير دليل على وحشية الإنسان وشره.

ثم يمضي جبران، إلى تصوير مقام الإنسان في الحياة، أو بالأحرى في عالم الناس، فيقول:

وأكثرُ الناس آلاتٌ تحرِّكها * أصابعُ الدهر يومًا ثم تنكسرُ

فلا تقولنَّ هذا عالم علمٌ * ولا تقولنَّ ذاك السيد الوقرُ

فأفضل الناس قطعانٌ يسير بها * صوتُ الرّعاة ومن لم يمشِ يندثرُ

إن الإنسان، في عالم الناس، غدا مجرد آلة، يتحكم فيها الدهر؛ وهذا يشي بأن الإنسان مسيَّر ومجبر، تتحكم فيه الأقدار، وإذا لم يمشِ ولم يخضع للأوامر، فإن مآلُهُ الاندثار، إذ سيتعرض للعقاب والتسلط لتمرده، وبالتالي فالحرية غائبة في هذا العالم؛ وهذا المنطق يَسْري على كل الشرائح الاجتماعية، فلا فرق بين العالم والجاهل، والوقور وغير الوقور؛ وفي هذه المقاربة ينتقل جبران إلى تخيّل صورة حبلى ومعبرة، إذ شبَّه الناس والعوام/ [المحكومين] بالقطيع، المسيَّرة من طرف الراعي/ [الحاكم]؛ وبالتالي فالذات لا تنعم بالحرية، بل تبقى أسيرة التسيير، في عالم الناس، حيث مركز التناقضات، وحيث يكون الخير مُقْبَرَك، والشَّرُّ مترسخ، وحيث منطق الحاكم والمحكوم، والآمر والمأمور.

---

[1] إستلهمنا هذه الثنائيات من دراسة قيمة للدكتور محمد السرغيني حلل فيها قصيدة المواكب من منظور سيميولوجي، أُنظر كتابه:" محاضرات في السيميولوجيا". دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1 سنة 1987م.

وبعد أن قمنا بإلقاء نظرة تحليلية على الصوت الأول، الذي يمثل عين الناقد الذي ينقد ويحلل ويمحص المجتمع الواقعي الفاسد، ويعدُّ مساوئه، ويحصي سلبياته، يأتي الصوت الثاني، ليدخل في نسق تواصلي حواري، فيرُدُّ على هذا الصوت الذي تكتنزه دندنات من التشاؤم من عالم الناس، فيقول:

ليس في الغابات راعٍ * لا ولا فيها القطيع
فالشتا يمشي ولكــن * لايجاريـــــه ربيع

إذا كان عالم الناس تكتنفه تناقضات، ويعتريه الخلل واللاتوازن، حيث يسود منطق الغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والراعي والقطيع؛ ففي عالم الغاب الجبراني، عالم الفضيلة والمحبة والخير، تنتفي مظاهر العبودية، ويختفي منطق الراعي والقطيع؛ وإذا كان الإنسان في الواقع مسيَّرا، ففي عالم الغاب يكون مخيَّرا، متجردًا من كل أنواع العبودية والتسلط، إذ يحرك نفسه بنفسه، ويفعل ما تُمْليهِ عليه مشاعِرُهُ وأحاسيسه، دون حسيب ولا رقيب...

المقطع الثاني: ثنائية الحياة والموت.

يرى جبران الحياة كالنوم، وما يقع فيها مجرد أضغاث أحلام تراود النفس الفاشلة، التي سيطر عليها صوت اليأس والخمول، فتعقّمت من الثقة بقيمتها، فلم تدري قدر عظمتها، وسر ألوهيتها. وفي الأبيات الأخرى، يبين جبران سليقة النفس في عالم الناس، إذا تواري الحق، وتلبس الجلد الحِرْبَائِي، فتكذب وتنافق، فإذا كانت حزينة، تواري حزنها، فتظهر الفرح؛ وإن أصابتها الفاقة، لم تعش في حياة كريمة ، وعيشٍ كريم، أظهرت العكس.

وفي المقطع ذاته، يقول جبران في سياق الصوت الثاني، مفندًا هذا المنطق من عالم الغاب، ونافيًا له، فيقول:

ليس في الغابات حزنٌ * لا و لا فيها الهمومْ
فإذا... هبّ.. نسيمٌ * لم تجىءْ معه السمومْ

ومن هاهنا، نلحظ غياب الحزن والهموم في عالم الغاب.

المقطع الثالث: ثنائية السكر والصحو:

وقلَّ في الأرض مَن يرضى الحياة كما * تأتيهِ عفواً و لـم يحكم بهِ الضجرْ
فذا يُعربـــــدُ إن صلّـى و ذاك إذا * أثرى و ذلك بالأحـــــلام يختمرُ
فالأرض خمارةٌ و الدهر صاحبها * و ليس يرضى بها غير الألى سكروا

في هذا المقطع، تكشف لنا الرؤية الجبرانية العميقة في عالم الناس، رفض الناس للحياة البسيطة، القائمة على العفوية والسليقة، إذ إن القليل من يرضى بهذه الحياة.

ثم يتغلغل جبران في وصف حياة الناس في عالمهم البشع، فالإنسان مجبول على التخدير واحتساء المدام، ويقصد الخمرة باعتبارها الملاذ الذي يجد فيه ضالته؛ ونتيجة لهذا تكون الأرض حانة للخمور، صاحبها الدهر، والزبناء الذين يترددون على الخمارة همُ الرعابدة والسكارى.

أما في عالم الغاب، فتتغيَّبُ هذه الفطرة السيئة البشعة. وتحل محلّها الفطرة السليمة الصحيحة.

المقطع الرابع: ثنائية الدين والكفر.

تناول جبران موضوع الدين في هذا المقطع، كما يراه في عالم الناس، فوصل إلى نتيجة بالغة الأهمية، هي أن الدين لم تعد تُمارس طقوسه من أجل العبادة الحقيقة، النابعة من الإيمان القويّ، بل إنما المواظبة على طقوس العبادة، وممارسة الواجبات الدينية بشكل يَوْمِيّ، هو في الحقيقة نابع من طَمَعِ العبد في الجنة من جهة، والخوف من نار جهنم من جهة ثانية، وبالتالي فعبادة الفرد ليست بريئة، فلولا العقاب الذي ينتظر الإنسان، لما اعتكف العبد على الصلاة آناء الليل والنهار، ولما وَلَّى وجهه شطر القبلة لآدائها، ولولا الفوز بالجنة لما سعى الفرد لأداء الواجبات الدينية التي أوصانا بها الله تعالى. وهذا التناقض الصَّارخ والفادح في الناس، جعل جبران يجعل من الدين تجارة، فالعبد الذي واظب العبادة، وسارع إلى المغفرة عمل الخير؛ فإنه سيربح بالجنة، أما الذي لم يسارع إلى العبادة وأهملها، وانشغل بملذات الحياة وشهواتها، فإنه خسر في التجارة، وبذلك خسر الجنة.

أما في عالم الغاب، فتنتفي هذه الثنائية المتناقضة، إذ ليس في الغاب لا دينٌ ولا كفرٌ. وفي هذا المقطع، نلحظ أن جبران آمن بوجود ديانتين، هما الإسلام والمسيحية، وهذا ما يوضحه قوله:

لم يقم في الأرض دينٌ * بعد طه و المسيح

فَطَهَ هنا هو النبي "محمد" صلى الله عليه وسلم، والمسيح هو عيسى عليه السلام، ويعد هذا البيت دليل قاطع، على من رَمَى جبران بأسهم الاتهام بالإلحاد والزندقة والكفر.

المقطع الخامس: ثنائية العدل والظلم.

يرى جبران في هذا المقطع، أن العدل في عالم الناس مضحكٌ ومُبْكٍ في آن، يبكي الجنّ إذا سمعت ماهية العدل في عالم الناس، ويُضحك الأموات إذا نظروا في حجم الضَّيْم الذي حَاقَ بالإنسانية. والسر في هذا التناقض، هو غياب العدل فوق الكرة الأرضية، وانتشار الضيم والتسلط، فالجاني الذي لم يرتكب سوى جرمًا صغيرًا يعاقب بالسجن والموت، أما المجرم المحترف الذي اتخذ من الإجرام واللصوصية، وقتل الأبرياء، ونشر الفساد حِرْفَة له، فإنه لا يُعاقب على أفعاله، بل يُعظم ويُمجد. ومن ثم لا يمكن الحديث عن العدل في عالم الناس، لأن عدل الناس كالثلج إذا رأته الشمس ذاب.

أما في عالم الغاب، فيغيب هذا البهتان، الذي أصبح من خصوصية عالم الناس فقط.

المقطع السادس: ثنائية القوة والضعف:

في هذا المقطع، يؤكد جبران، غاية التأكيد، أن الأرواح التي ملكت تاج القوة، وصولجان الجاه، مآلها السيادة، أما الأرواح الفاقدة للقوة والجاه، فإنها تبقى عُرضة شتى أنواع العبودية، من طرف تسلط الأقوياء.

المقطع السابع: ثنائية العلم والجهل.

يرى جبران أن بداية العلم واضحة، أما نهايتُهُ فهي مجهولة، إنها بيد الدهر والقدر؛ ثم يُقِرُّ جبران أن الإنسان العالم، الذي مَكَّنَهُ الله قدرة في اكتساب العلم وميَّزه عن باقي جنسه، بقوة البديهة، والذكاء والدهاء، فإنه مدعاة للسخرية من طرف الجُهَّال والنوَّام، لذلك يتحاشى العالِم مخالطة الناس، ويكون في مجتمعه غريبا، علاوة على هذا أنه يجاهر بالحق ولا يخاف لومة لائم. والنتيجة حسب النظرة الجبرانية أن علم الناس مآله الزوال والاندثار.

المقطع الثامن: ثنائية الحر والعبد.

الحُرُّ في عالم الناس، حسب الرؤية الجبرانية دائمًا، يصنع من نوازعه وأفكاره، عالما آخرًا يسجن فيها نفسه، فيظل بهذا عبدًا لأفكاره ونوازعه في سجنه؛ بل حتى وإن تحرر الحرُّ من ناس مجتمعه، فإنه سيظل عبدًا لمن يهوى ويُحِب؛ إن الحديث عن الحرية في عالم الناس عند جبران يعد ضرب من ضروب الخرافة والأسطورة، لأن الحرية تساوي العبودية في الواقع.

المقطع التاسع: ثنائية اللطف والخبث:

في هذه الثنائية جَسَّدَ جبران حقيقة اللطف الذي يُبَادِرُ به الناس، فهو مجرد قناع يلبسه الخبيثون والأنذال عهدما يحسّون بخطرٍ ما يحدق بهم، وخوفٍ ما يطوف بهم. لهذا يتخذون اللطف درعًا تقيهم من الخوف، وذريعة تحميهم من الخطر.

المقطع العاشر: ثنائية الظرف والبلادة.

يؤكد جبران ههنا، في هذا المقطع، أن الظرف مجرد تمويه، ويرى أن أبغض أنواع التمويهات، هو ظرف أولئك الذين يتميزون بالبراعة والذكاء، وحدة البداهة، لكن في التقليد والاقتداء والاحتذاء؛ والظريف دومًا ما يكون معجبًا بأشياء يجهلها ولا يفقه كُنْهَهَا، فضلًا عن كَوْنِهِ أنانيًا إذ يَخَالُ نفسه ملكًا رغم عتيّه وكهولته في السن.

المقطع الحادي عشر: ثنائية الحب والكره.

يتناول جبران في هذه الثنائية موضوع الحب في عالم الناس، والحب هو عاطفة سامية ومقدسة، فطرها الله عز وجل في قلب الإنسان، لأن "الحب كنزٌ ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحسّاسة"[1]؛ ليعمَّ

[1] روائع جبران، ص/56.

الود بين بني البشر، وتنتشر المحبة بينهم؛ غير أن لجبران نظرة خاصة للحب في عالمنا، فهو كالعشب الذي لا ثمر ولا زهر له، كأنه شاء أن يقول لنا، بتعبير أوضح وأجل، أن الإنسان لم يُعْطِ المكانة السامية للحب باعتباره عاطفة نبيلة وهَّاجة، أساسها العطاء لا الأخذ، والود لا الكره، والتآخي والمحبة لا الحسد والاستغلال، لهذا اتخذ الحب معنىً ماديًا، فغدا بذلك، مجرد قنطرة يعبرها الإنسان لبلوغ مرامٍ رخيصة، فتخندق مفهوم الحب في خندق المتعة والشهوة واللذة، ومافتئ ينتحر ويموت على الفراش. وهذه النظرة الجبرانية تتقاطع مع نظرة أفلاطون للحب، أو ما يُسَمَّى بالحب الأفلاطوني،" فالحب الأفلاطوني الذي تكلم عنه أفلاطون في 'المأدبة' هو الحب العلوي الأفلاطوني وهو الحب المثالي الذي يرقى فيه العقل فوق العالم الحسي ويرتفع عن العالم الروحي المقيد بالأشخاص إلى عالم الجمال المطلق أو المثالية المطلقة وهذا الحب عند أفلاطون غاية الغايات."[1]

المقطع الثاني عشر: ثنائية المحب والكاره.

إن المحب الهائم — في عالم الناس – الذي جعل من الصدق والوفاء أساس في الحب، يكون عُرضة للسخرية والاحتقار، إذ هو في نظرهم مجنون، لأنه لا يبغي من حُبِّهِ أيَّة مصلحة أو خدمة، بل يحب من أجل تحقيق الحب.

المقطع الثالث عشر: ثنائية الفاتح والشاعر.

يرى جبران، أنَّ نِسيان الفاتحين الذين ملكوا أسباب التمكن والسيطرة والقوة والهيمنة ، يكون أمْرًا هينًا، في حين أن نسيان الشعراء الذين جعلوا من الكلمات ملاذًا للتعبير، وللشعر وكرًا للفرار من بطش الواقع، ومن الخيال مرتعًا لتحقيق الرغبات، يعتبر أمرًا عسيرًا، ويستدل جبران في المقام الأول بذي القرنين الذي مَكَّن الله لهُ أسباب السيطرة والنفوذ، أصبحت المجزرة قرينة له حسب جبران، وفي المقام الثاني يمثل بالشاعر قيس بن الملوح، حيث أصبح صيته ذائعًا وشائعًا معروفًا بسبب انكساراته ومكابداته مع العشق والحب لذلك لا يزال يعشش في أذهان العشاق. ثم يعرّج جبران إلى تكرار حديثه عن الحب، وفي التكرار نوع من التوكيد، لذلك فهو يؤكد أن الحب الحقيقي هو ما كان أصله في الروح لا في الجسم.

المقطع الرابع عشر: ثنائية السعادة والشقاء.

جمٌ غفيرٌ من الناس، يلهثون وراء السعادة، ويَجْرُون للتعلق بذيلها، لذلك وَجَدَ جبران شَبَهًا بينها وبين الشبح، فما إن يَصلوا لمبتغاهم وتطلعاتهم، تتلاشى هذه السعادة، وتولد سعادة أخرى بغية بلوغ مبالغ أخرى؛ وهذا الشبح إن صار جسمًا أو شيئًا ماديًا سرعان ما يمله البشر ويمقتونه. فالإنسان حسب الرؤية الجبرانية، يسير ببطئ نحو هدف معين كما النهر الذي هدفه هو الوصول للمصب، وما إن يصل

[1] اقتبست هذا القول من مقالة بعنوان:" الحب السامي: مابين الأفلاطوني والعذري." مجلة: العربية. ص/67. العدد: 393. أكتوبر 2009م. ص/67.

الإنسان لهدفه يملّ ويكل، والنهر كذلك ما إن يصل للمصب تعكَّر وتلوث. وبالتالي فالسعادة الحقيقية إنما تكمن في تَصَبُّرٍ وتشوُّقِ الإنسان لبلوغمراده، وليس في تحقيق مراده بالذات.

المقطع الخامس عشر والسادس عشر: ثنائية الروح والجسد.

يرى جبران أن الروح خالدة في الإنسانية، بل خالدة حتى بعد الموت، كما يؤكد بأن الروح لا كمال لها، فهي لا تتلاشى ببلوغ كمالٍ معين، ولا تصورها المظاهر أو الصور. وما الجسم للروح إلا كالرحم للجنين: [الجسم/ رحم. الروح/ الجنين].

المقطع السابع عشر: الموت والحياة.

في هذا المقطع، يورد جبران إيمانه بأن الموت هو مصير كل إنسان، وأن"كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ"[1] ويتغلغل جبران في تبيان فلسفة الموت ويكشف أسراره، فيرى أنه كالبحر من كان صالحًا خفَّت سيئاته فإنه سينجو من عذاب الموت وعقابه، أما أخو الأثقال، فإنه سيسوء مصيره وينحدر.

المقطع الأخير:

في الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة، نلاحظ صوت تكتنفه نبرة من اليأس والعجز والفشل، إذ فشل في إنشاء عالم فاضل، خالٍ من الغطرسة، صافٍ من الكذب والنفاق والمغالاة؛ إن جبران كان يتوق لهدف سَامٍ هو العيش في الغاب دون سواه، لكنه استسلم للأقدار ورضخ مسلمًا بها، فطأطأ في الأخير عزيمته وإلحاحه بكل روح رياضية، معلنًا فوز القدر، إذ حال دون إنشاء عالم الغاب، ذلك العالم الذي تنتفي فيه المتناقضات، وتختفي فيه السلبيات. وبالتالي "لا يستطيع الشاعر أن يتحرر من شرطه التاريخي. لكن الشعر يوفِّر لنا هامش حرّية وتعويضًا مجازيًا عن عجزنا عن تغيير الواقع، ويشدنا إلى لغة أعلى من الشروط التي تقيّدنا وتُعرقل الانسجام مع وجودنا الإنساني، وقد يُساعدنا على فهم الذات بتحريرها مما يُعيق تحليقها الحرّ في فضاء بلا ضفاف."[2]

ثالثا: صورة عالم الناس وعالم الغاب.

لقد حاول جبران خليل جبران تصوير سلبيات عالم الناس، ولن نقول أنه تصوير غير موضوعي كون جبران عكف على تعداد المساوئ والسلبيات دون المحاسن والإيجابيات، هذا لأن عالم الناس خالٍ من أية حسنة أو إيجابية فهو كله لدى جبران سلبي، متشابك بالتناقضات، ومليء بالثنائيات..

لقد قام جبران بوصف دقيق لهذا العالم، فأماط اللثام عليه، وكشف خباياه، وسبر أغواره. وممَّا تجدر الإشارة إليه أن جبران كان حصيفا في تصدِّيه لهذا العالم، حيث ركَّز في قصيدته على تبيان مكانة بعض القيم – المهمة والتي تنبني عليها أسس الحياة – وسلَّط الأضواء عليها؛ ومن هذه القيم: الخير،

---

[1] سورة آل عمران. [الآية:185].

[2] حيرة العائد، محمود درويش. ص/ 149.

العدل، الحب، الدين، الظرف، الحرية، الروح...إلخ. ولما حاول استقراء المكانة التي تحتلها هذه القيم المهمة القادرة على تغيير الأشياء، وصل إلى أن الناس لا يهتمون بهذه القيم، ولا يُثمّنون قيمة هذه القيم.

وإذا كان عالم الناس مرتعا لكل أنواع التناقضات، حيث يسود منطق الآمر والمأمور، والراعي والقطيع، ففي عالم الغاب تنتفي هذه التناقضات، وتختفي هذه الامتيازات، إذ:

ليس في الغابات راعٍ * لا ولا فيها القطيعْ

وعلى غرار أفلاطون الذي دعا إلى عالم المثل، هو ذا جبران يدعو في قصيدته المواكب إلى عالم الغاب، عالم المحبة الخالصة، والحياة البريئة البسيطة، التي تُعاش على الفطرة والسجية، وتنبني على الصدق والحب؛ وخلافًا لعالم الناس أيضًا، حيث يعيش الإنسان دومًا في هم وكدر، فعالم الغاب مليء بالأفراح والسعادة والحبور إذ:

ليس في الغابات حزنٌ * لا و لا فيها الهمومْ

و إذا وُجد من الناس من يستغل الحب ويدعي الغرام، بغية الوصول لأغراض رخيصة، ويدس السم في عسل ادعاء الحب، ففي عالم الغاب لا وجود لهؤلاء الصنف من البشر:

ليس في الغاب خليع * يدَّعي نُبلَ الغرامْ

وإلى جانب هذا، ففي عالم الغاب يغيب العدل ويغيب العقاب، فَبِعَيْشِ الإنسان على فطرته التي جُبل عليها، وإحيائه حياة بسيطة ومتواضعة، لن يكون هنالك داع لوجود عدل وقوانين تنظم الحياة في عالم الغاب، فهي منظمة ومسيرة، تسير ذاتها بذاتها:

ليس في الغابات عدلٌ * لا و لا فيها العقابْ

هذه هي ماهية عالم الغاب الذي بشَّر به جبران في قصيدته المواكب، إنه العالم الحقيقي الذي يجب على الإنسان أن يعيش فيه ويدرك أسرار ألوهيته، العالم الذي ينبني على الحياة البسيطة التي تعير الاهتمام للقيم والجانب المعنوي، إنه العالم الذي تختفي فيه مظاهر الفساد والكساد والضياع، وتتفشى فيه معالم الألوهية الخالصة، والمثالية العالية.

لقد سعى جبران إلى بناء فلسفة حياة خاصة به، هذه الفلسفة التي تنبني على تمجيد عالم الغاب، وتفضيله عما سواه، باعتباره العالم المثالي المعصوم عن وجود أي رذيلة؛ ثم بعد هذا وفي ظل وجوده في عالم الغاب؛ يُصِرُّ على اتخاذ آلة "الناي" معه، والناي هي آلة موسيقية، تلازم الراعي أينما حل وارتحل، وهي رمز للفن والألحان وعذوبة الحياة، حيث تنفث في النفس أنغامًا شجية، يترنم بها الإنسان، ويستمتع بألحانها التي تغازل ذبذبات الآذان لتتغلغل في أعماق الروح.

إن بين الناي والغاب علاقة تكاملية ضرورية، فالوجود في عالم الغاب يستدعي وجود الناي، فالناي مصدر الحياة، وملهم الإنسان على حياة مفعمة بالغبطة والحبور، والأنغام التي يبثها الناي"ترعى العقول" و"تمحو المحن" وألحان الناي "خير الصلاة" والغناء أيضًا "حب صحيح"... والناي آلة موسيقية،

والموسيقى لدى جبران هي"لغة النفوس، والألحان نسيمات لطيفة تهزّ أوتار العواطف."[1] والناي يعتبر ممثل الموسيقى، وهنالك بالمقابل أمور أخرى تنضوي تحت سقف الموسيقى، باعتبارها مفهومًا شاملًا لدى جبران، يحوي عدة فنون، والموسيقى، أيضًا، حسب جبران "كالشعر والتصوير، تمثل حالات الإنسان المختلفة وترسم أشباح أطوار القلب وتوضّح أخيلة ميول النفس وتصوغ ما يجول في الخاطر وتصف أجمل مشتهيات الجسد."[2]

خاتمة:

لقد حاولنا في هذا المقال، رصد الرؤية الجبرانية للحياة كما تجلت في قصيدته المواكب، ووصلنا إلى أن جبران يقسم العالم قسمين: عالم الناس وهو عالم بئيس ومخيف يجمع كل القيم الفاسدة والمنحطة، وعالم الغاب وهو العالم المثالي الذي تتحصل فيه القيم المحمودة، والخصال الجميلة. يجسد هذا التصور نموذجا حيا للتصور الرومانسي الذي يقدس الطبيعة ويدنس عالم المدنية.

ومهما كانت فلسفة الحياة عند جبران خليل تمتاز بالابتعاد عن الواقع والتمسك باليوتوبيا، فإن هذا المنظور قمين بأن يخلّق المجتمعات الإنساني، ويجوّد القيم الأخلاقية من خلال إعادة النظر في أهمية القيم النبيلة في خلق مجتمع أفضل.

---

[1] المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، جميل جبر.ص/85.

[2] نفسه، ص:91.